اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام | ح٢٢ | الآيات [١٣٩ : ١٥٠]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بإذن الله -عز وجل- نستكمل ما بدأناه في تفسير سورة الأنعام.

كنا توقفنا عند الآية ١٤١ في سورة الأنعام قول الله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

ذكرنا في المرة الماضية كيف أن ضغط المجتمعات أو تسلط السادة الذين يريدون أن يشرعوا شرعًا بعيدًا عن دين الله -عز وجل-، وكيف أن العقل البشري مهما بلغ من الذكاء والقوة والتفكير -مهما بلغ- عندما يبتعد عن الوحي ويأتي ليضع شرعًا يشرع في المعاملات بين الناس، تجده يصل إلى مرحلة سماها الله -عز وجل- سفهًا، قال الله -عز وجل-: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام ١٤٠]، وقلنا إنه أحيانًا بالفعل ضغط المجتمع يمكنه أن يجعل الناس تفعل أفعالاً في قمة السفاهة، لكنه يمشي في المجتمع لا يشعر بهذه السفاهة لأن المجتمع راضٍ، هذه التقاليد تتغير مع الأزمنة ويأتي الزمن الحاضر ينظر للزمن الماضي دائمًا نظرة أنه كان على جزء من السفاهة. إذًا البعد عن الوحي سيؤدي إلى أفكار في غاية السفاهة، ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾.

تكلمنا في المرة الماضية أيضًا أن السورة مرَّت بمرحلتين في منازعة في تشريع ربنا -سبحانه وتعالى-، المرحلة الأولى؛ الناس التي تريد أن تُحلل ما حرم الله -عز وجل-، يريدون أن يقولوا على الميتة التي قال عنها الله أنها حرام، يريدون أن يقولوا على الميتة حلال، فيقولون شبهات كي تكون الميتة حلالًا.

المرحلة الثانية؛ يريدون أن يجعلوا الحلال حرامًا، الأشياء الحلال للناس يقولون عنها هذه خاصة للآلهة، لا ينبغي أن يركب أحد هذه الدواب، هذه اللحوم والألبان خاصة لبعض الناس، ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ [الأنعام ١٣٨]، الذي يقولون عليه من الأطعمة هو الذي يُؤكَل وليس الذي شرعه الله، ليس

الذي أحله الله، وقلنا إن تحريم الحلال أشد جُرمًا لأنه الأكثر منازعة، تحليل الحرام هو شيء متوافق مع هوى النفس وإن كان هذا أيضًا ليس معذورًا أمام الله -عز وجل- لكنه يجاري هواه، يجاري شهواته، لكن الآخر ينازع لمجرد المنازعة في التشريع، لمجرد أنه ينازع ما أراده الله -عز وجل-.

إذًا هم ظلوا يقسمون الحرث والزروع والأنعام، ظلوا يقولون هذا الزرع للأصنام، هذا الزرع لربنا، هذا الزرع لكذا، هذه الأنعام للذكور، هذه الأنعام للسادة، ظلوا يقسمون شيئين؛ الأنعام والزرع، فالله -عز وجل- يقول في الآيات مَن الذي خلق هذه الأنعام؟ ومن الذي خلق هذا الزرع حتى تُوزِّعوه كيفما شئتم؟ الله -عز وجل- هو الذي خلقه، إذًا الله -عز وجل- هو الذي خلق، فالله -عز وجل- هو الذي يأمر كيف توزع هذه الأشياء، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف ٥٤]، ولله المثل الأعلى عندما تدخل على شخص يوزع شيئًا من مال، فتقول له هل هذا مالك كي توزع منه هكذا كيفما شئت؟ هذا المال ليس مالك حتى تقسمه، إذًا ولله المثل الأعلى، الله يقول لهم أنتم تتكلمون عن الزرع والأموال مَن الذي يأخذها، هل أنتم مَنْ خلقتموها؟ بل الله -عز وجل- هو الذي خلقها، إذًا الله -عز وجل- هو الذي يأمر كيف تُوزَّع. لذلك الآيات التي تليها: ((وهو)) سبحانه وتعالى، وحده -سبحانه وتعالى-، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ [الأنعام ١١٤]

أي وأنشأ النخل والزرع، أي أنكم لم تفعلوا أي شيء، **أنشأ** كلمة المنشأة تعني شيئًا كبيرًا، بمعنى أن هذا الزرع من أول لحظة حتى كبر، الله -عز وجل- هو الذي أنبته ، أي أنكم لم تتدخلوا في أي مرحلة، أنت فقط تذهب وتسقي الزرع، أنت لا توجه النبتة كيف تنمو!ولا تقول للثمر كيف يتكون!ولا أنت الذي توزع الثمرات فتقول سأجعل هذه الثمرة حلوة وهذه الثمرة مُرة!، أنت لا تتدخل في أي شيء، الله -عز وجل- هو الذي يوزع الثمرات ويقدر كل شيء، الله -عز وجل- يقدر ويدبر كل شيء -سبحانه وتعالى-. فهو الذي أنشأ **جنات**، وبينما الله -سبحانه وتعالى- ينشئ، بينما الله -سبحانه وتعالى- يخلق، الإنسان قد يستنفد قواه ويبذل جهدا كبيرا لكي يستنسخ شيئًا بسيطًا، ويحاول أن يأتي بالحمض النووي من شيء ويضعه في شيء آخر من أجل عمل شيء بسيط، لكن الله -عز وجل- عندما ينشئ فهو ينشئ **جنات** -سبحانه وتعالى-، قدرة مطلقة من الله -سبحانه وتعالى-، كما قال الله -سبحانه وتعالى- في سورة عبس ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ* أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾، عندما يُنزل الله الماء ينزله

((صبًا))، ﴿ثُمَّ شَقَقنَا ٱلأَرضَ شَقّا﴾، وانظر إلى التنوع ﴿فَأَنبَتنَا فِيهَا حَبّا* وَعِنَبا وَقَضبا﴾ [عبس٢٤-٢٨]، فهنا ربنا -سبحانه وتعالى- عندما أنشأ فقد أنشأ جنات، منها معروشات؛ أي أن الناس هي التي تضع له عروشًا ليتسلق عليها، وأيضًا غير معروشات؛ أي لا تصعد للأعلى.

﴿وَٱلنَّخلَ وَٱلزَّرعَ مُختَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾[الأنعام ١١٤]

أي الذي ﴿يُسقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعضَهَا عَلَىٰ بَعضٍ فِي ٱلأُكُلِۚ﴾ [الرعد ٤]، قلنا إن المشهد عجيب، إذا تخيلت أنك تشاهد المشهد لأول مرة، أو فلنفترض جدلًا أننا جئنا بشخص لم يعِش أبدًا على كوكب الأرض، مثلاً شخص قادم من المريخ، وأنت جئت له ببعض الطين الأسود ووضعت فيه بذرة بحجم حبة اللب ثم سقيتها ماءً، فيكتشف أن الذي يشق الطين نبتة! ثم تصبح خضراء ثم تنبت فتخرج فراولة وأخرى تخرج مانجو وأخرى تصبح رمانًا، فينبهر، وقد يحفر في الطين ظنًا منه أنه يوجد شيء بالداخل هو الذي يفعل ذلك، الله -عز وجل- هو الذي يُقدِّر ذلك، الله -عز وجل- هو الذي يدبر ذلك، أأنتم تخلقونه؟ أأنتم تزرعونه؟ الله -عز وجل- هو الذي يفعل ذلك، الإنسان فقط يسقي الزرع ثم يأتي في النهاية ويقول أنا الذي صنعت هذا، هذا النبات ملكي، أو هذا ولدي، الإنسان كل ما يفعله فقط هو المني، ثم الله -عز وجل- ﴿يَخلُقُكُم فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُم﴾ مَن الذي يصل إليك في هذا المكان؟ ﴿خَلقا مِّن بَعدِ خَلقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر ٦] الله -سبحانه وتعالى-.

فربنا -عز وجل- يقول: ﴿مُختَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾[الأنعام ١١٤] قالوا متشابه؛ أي الثمر يمكن أن يبدو من بعيد مثل بعضه، مثلًا كله مستدير لكن حقيقةً عندما تتأمل تجده غير متشابه أبدا، كل نبتة لها قصة ولها نوع من الأوراق، وعلماء النبات يعرفون ذلك، ولها طريقة ولها ثمرة ولها بذرة ولها قشرة ولها ساق، كل نبات مختلف، كأنه عالم مختلف عن النبات الآخر ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾.

فربنا –عز وجل– يقول: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، ما علاقة هذا الختام بالسياق؟ يقول الله –عز وجل– أنا الذي خلقت هذه الأشياء، وأنا أبَحْتُ لكم هذه الأشياء فلا تجعلوا أحدًا يُحرِّم عليكم ما أحللت لكم، لأن الكفار يأتون فيأخذون جزءًا من الزرع ويقولون هذا يخص الآلهة، هذا الجزء من الزرع، ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ [الأنعام ١٣٨]، هم الذين كانوا يقسمون الزرع فيقولون هذا الزرع ممنوع أن يأكله أحدٌ غير الأسياد، ممنوع أن يأكله أحدٌ غير القائمين على خدمة الآلهة، إذا كنت تريد أن تأكل من الزرع يجب أن ترتقي حتى تصل إلى أن تكون من القائمين على خدمة الآلهة، يوزعون الزرع بالرغم من أنهم لم يخلقوه! الله –عز وجل– هو الذي أنشأه، والله –عز وجل– هو الذي خلقه.

فربنا يقول: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام ١١٤]

هذا أمر إباحة، أبحتُ لكم هذا، أنا خلقتُه وأنا أبحتُه لكم، كُلوا من ثمره إذا أثمر، الحقوق الواجبة عليكم أنا الذي أُحددها ليس هم، هناك حقوق واجبة عليكم تجاه هذا الزرع لأني أنا الذي أنْبتُّه لكم، والعجيب أن هذه الحقوق لا نأخذ جزءًا من الزرع مثلًا ثم نجمعه في مكان ما كما كان يحدث مع الغنائم قبل الإسلام ، فتنزل نار تحرقه، بل الحق الذي في هذا الزرع يعود مرة أخرى إلى الناس، يعود إلى الضعفاء، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾، قيل: هذه هي الزكاة، وقيل: هذا أمر كان موجودًا قبل الزكاة، أنه في لحظة الحصاد كان الفقراء يجتمعون وتكون نفوسهم متشوقة، بدأ العنب يثمر وبدأ التمر يُثمر وبدأ الرمان يُثمر...فعندما تأتي لتحصد يجتمع الفقراء، فبعضهم أوجب أن تعطيهم في هذه اللحظة، وبعضهم قال: يستحب أن تعطيهم، ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النساء ٨]؛ أي عندما يحضر الحصاد أعطيه لكي لا تكون نفسه متشوفة، فتجد الفارق أنهم جعلوا الزرع لا يأكله غير الأسياد، والله جعل الزرع فيه حق للفقراء، انظر عندما يسيطرون هم على الاقتصاد كيف يتصرفون؟! وانظر عندما يقول الله –سبحانه وتعالى– كيف يوزع المال، فيجعل فيه حق للفقراء ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾ [الأنعام ١١٤] ، يوجد حق للفقراء وللمساكين في هذا الزرع، لأنه ليس أنت من خلقته، الله –عز وجل– هو الذي خلقه. والله –عز وجل– لم يقل تُخرِج الزرع وأنا سأنزل نارًا تحرقه مثلًا، لكن قال: يعود مرة أخرى للضعفاء، يعود مرة أخرى إلى الفقراء، ويبقى الفقير له الحق، **الزكاة هي حق الفقير**.

الفقير له حق في هذا الزرع، لأنه ليس أنت الذي أنشأت الزرع ولكن الله -سبحانه وتعالى- هو من وهبك الأرض وأعطاك القدرة المادية حتى تقوم على رعاية الزرع، فالله أوجب عليك -سواء العشر أو نصف العشر حسب ما إذا كان يسقى بماء السماء أم أنت الذي تعبت في سقيه- الله أوجب عليك الزكاة تعود إلى الفقراء مرة أخرى ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾، إذًا فالأوامر والنواهي التي نحن مطالبون بها تجاه الزرع ليست وفق ما يقوله المشركون بل وفق ما يقوله الله -سبحانه وتعالى-، هو الذي يجب علينا تنفيذه وهو إخراج الزكاة وعدم الإسراف.

﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾، قيل: "ولا تسرفوا" تعود على الأكل؛ أي كلوا من ثمره ولا تسرفوا، فعندما تأكل لا تسرف في الأكل، وقيل: تعود على قول الله -عز وجل-: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾؛ أي حتى الزكاة التي ستخرجها أو الإنفاق على الفقراء لا تسرف فيه، فلا تخرج كل مالك للفقراء وتظل فقيرًا، وقد ذكر الإمام الطبري عن ثابت بن قيس أنه لما قرأ ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾، وزَّع كل ثماره على الفقراء، كلما جاءه فقير أعطاه من ثمره، فبات بدون ثمر، فقال الله -عز وجل-: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ أي أن الإسراف يكون في الإمساك أو في الإعطاء -وإن كان بعض المفسرين قال بأنه لا يوجد إسراف في الخير- والشاهد أنه يختلف بحسب إيمان الشخص فعلى حسب قدرته الإيمانية، لكن القاعدة العامة أن غالب الناس لا تصلح على هذا، غالب الناس لا تصلح أن تنفق كل أموالها في سبيل الله، غالب الناس لا يستطيعون هذا.

إذًا فالقاعدة العامة لا تناسب غالب الناس، لذلك كما أنهم مطالبون بالإنفاق وعدم إمساك المال، فهم أيضًا مطالبون بعدم الإسراف بإعطاء كل أموالهم للفقراء، ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

إذًا فالله -سبحانه وتعالى- أيضًا يعلمنا التوازن في التعامل مع الرزق: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ﴾، هذه من صفات عباد الرحمن، ﴿لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان ٦٧]، إذًا فالإنسان لا بد أن يكون متوازنًا في التعامل مع المال، فلا يخرج كل ماله ولا يمسك تمامًا، لا بد أن يكون متوازنًا حتى

يستطيع أن يعيش، لذلك قال الله في صفات عباد الرحمن الذين يعيشون وسط المجتمع، فهؤلاء نموذج عملي قابل للتطبيق لأنهم يعيشون وسط الناس، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان ٦٣]، والعجيب أن في نفس السورة أيضًا، في أول السورة عندما كانوا يستنكرون على النبي – صلى الله عليه وسلم– قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان ٧]، في أشد الأماكن فتنةً عند الناس، فأنت تذهب إلى الأسواق بشكل طبيعي مع كونك متماسكًا إيمانيًّا، أنت لا تنعزل عن هذا المكان تمامًا، بل تذهب إلى أماكن الاقتصاد وأماكن البيع والشراء وتمارس حياتك الدنيوية بشكل طبيعي دون أن تتأثر وأيضًا تصلح للناس دنياهم، أنت لا بد أن تتواجد في تلك الأماكن وتعلم الناس كيفية البيع والشراء وتُذّكر الناس بالله –عز وجل– وتُعلّمهم الأذكار، تُعلّمهم فقه البيع والشراء، وذلك مع ممارستك لحياتك الدنيوية دون أن تتأثر.

هذا هو النموذج العملي القابل للتطبيق، أما تقديم نموذج واحد فقط عن الدين وهو النموذج المنعزل عن الدنيا فهذا يعطي الفرصة للعلمانية أن تتدخل، فتجد أنصارها يقولون بأنه ما دام أن الدنيا ليست من شأنكم ولن تستطيعوا أن تتصرفوا في الدنيا وليست لديكم توجيهات خاصة بالدنيا، فنحن سنطرح الطرح للتعامل مع الدنيا... فلا بد كما قال الله –عز وجل–: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة ٢٠٨]، الدين يدخل فيه كافةُ الأشياء.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ [الأنعام ١٤٢]؛

أي وأنشأ من الأنعام –كما أنشأ من الزرع جنات– أنشأ من الأنعام حمولةً وفرشًا، إذًا ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ تعود على قول الله –عز وجل–: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ﴾ [الأنعام ١٤١]، والجنات كانت أنواعًا فكذلك الأنعام أنواع، ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ [الأنعام ١٤٢]، وهذا من قدرة الله –سبحانه وتعالى– فهو الودود، ومن الود أنه –سبحانه– عندما يخلق، يخلق أنواعًا متعددة، فكان من الممكن الاكتفاء بصنف واحد من الثمرات، بطاطس فقط مثلًا، فالناس يكفيها من الغذاء بضع حبات من البطاطس مثلًا وبعض الأرز وحسب، فمن سيأكل أرزًا وبطاطس ويشرب ماءً لن يموت أبدًا من الجوع،

فكان من الممكن الاكتفاء بهذين الصنفين فقط، لكن من رحمة الله -سبحانه وتعالى- أن جعل لنا أنواعًا من الثمار والفواكه والحبوب، كذلك الأنعام متنوعة.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾، فما معنى حمولةً وفرشًا؟ الحمولة قيل: هي التي تستطيع أن تحمل الإنسان كالإبل الكبيرة أو الخيل والبغال والحمير التي تحمل الأشياء، ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل ٧]، فالحمولة هي التي تحمل أثقال الإنسان.

أما فرشًا فقيل: هي الحيوانات الصغيرة كالغنم الصغير الذي تكون بطنه مقاربة للأرض أو صغار الإبل التي تكون بطونها كأنها مفروشة على الأرض، بخلاف الإبل أو البغال أو الخيل الكبيرة فبطنها ليست ملامسة للأرض، وقيل: فرشًا التي تذبح وتؤخذ أصوافها وأوبارها ويصنع منها الفرش، وقيل: فرشًا الحيوانات التي تقوم أنت بفرشها على الأرض حتى تذبحها؛ أي ما يُذبَح للأكل؛ أي وجعل لكم من الأنعام ما يُركب مثل الخيل والبغال والحمير وجعل لكم من الأنعام ما يؤكل، فالله جعل لنا الأنعام نوعين، انظر إلى التنوع، نوع تركبه وتحمل عليه الأثقال ونوع تذبحه لتأكله، فتركب الخيل والبغال الحمير وتذبح الإبل والبقر والغنم.

إذًا فالله -عز وجل- هو الذي أنشأ هذه الأشياء وهو الذي يأمرنا -سبحانه وتعالى- ماذا نفعل فيها، هو من يحدد لنا ماذا نأكل وماذا ندع، لا نأكل الحمر الأهلية، ونأكل الإبل والبقر والغنم، نؤدي الزكاة عندما تبلغ عدد كذا في الغنم أو في البقر، الله هو الذي يحدد حقها وأين يذهب حقها وما هي مصارفه، الله -عز وجل- هو الذي يحدد كل هذا، لذلك مع أنَّ تفاصيل مقادير الزكاة لم تأتِ في هذه السورة -لأنها مكية- لكن جاء فيها رد على المشركين حيث بدأوا يتدخلون في توزيع الأطعمة وفي توزيع الحرث والأنعام، فالله -عز وجل- وحده هو الذي يفعل ذلك وهو الذي يشرع.

وكما قلنا فهناك مناقشة طويلة في سورة الأنعام من أجل محاولة المنازعة في التشريع في أمر واحد فقط من الأطعمة وهو أن الميتة بدلًا من أن تحرم من الممكن أن تكون حلالًا أو أن الشيء الحلال من الممكن أن يحرم، مناقشة طويلة من أجل تدخلهم في شيء واحد فقط من الفقه، فكتاب الفقه كبير جدًا، سنذهب

إلى كتاب الأطعمة، جزء من باب حكم الميتة، فتَدَخُّلهم في حكم واحد من هذه الأحكام يستلزم التصدي له، وقد قال الله -سبحانه وتعالى- ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام ١٢١]، الأمر يتحول إلى شرك، فالأمر ليس بهين، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور ١٥].

لذلك قال الله: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام ١٤٢]؛ أي أنه رزق من الله -عز وجل-، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنعام ١٤٢]، عندما تتقصى كلمة خطوات الشيطان في القرآن ستجد أنها ذُكِرَت في خمس مواضع؛ مرتان في البقرة،﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة ١٦٨]، ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة ٢٠٨]، ومرة في الأنعام أيضًا وردت مع الأكل، ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنعام ١٤٢]، والاثنان وردا في آية في سورة النور ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، بعد أن حذَّرنا الله -عز وجل- من تلقي الشائعات ونشرها، تجد أن خطوات الشيطان في الخمسة مواضع -موضعان في سورة النور وموضع في سورة الأنعام وموضعان في سورة البقرة- تجد أنها تدور حول جزأين، الجزء الأغلب عن الشهوات، والشهوات جزءان؛ نقل الكلام في الفاحشة، ﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ [النور ١٩]؛ أي نقل الفاحشة وأنّ نشر الفاحشة في المجتمع يبدأ فقط بمجرد نقل الكلام، وعن طريق الأطعمة.

إذًا عند شهوات البطن والفرج يتدخل الشيطان حتى يجعل الناس يسيرون في خطوات، لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول في الحديث المشهور: (يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن...)، وذكر فيها: (وما انتشرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها)[1]، انتبه إلى كلمة "حتى يعلنوا"، إذًا فالفاحشة تمر في المجتمع بمراحل،

((العقوبة الكلية تنزل على المجتمع في المرحلة الأخيرة وهي مرحلة الإعلان بالفاحشة))

---

١ عن عبدالله بن عمر: يا مَعشَرَ المُهاجِرينَ !خَمسُ خِصالٍ إذا ابتُلِيتُم بِهِنَّ، وأَعوذُ باللهِ أنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لم تَظْهَرِ الفاحِشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعلِنُوا بِها؛ إلا فَشا فِيهِمُ الطاعونُ والأَوجاعُ التي لم تكُنْ مَضَتْ في أسلافِهِم الَّذين مَضَوا، ولم ينقُصُوا المِكيالَ والمِيزانَ إلا أُخِذُوا بالسِّنِينَ وشِدَّةِ المُؤْنَةِ وجَورِ السُّلطانِ، ولم يَمنعُوا زكاةَ أموالِهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السَّماءِ، ولولا البهائِمُ لم يُمطَرُوا، ولا نَقَضُوا عهدَ اللهِ وعهدَ رسولِهِ إلا سَلَّطَ عليهِم عدُوًّا من غيرِهِم، فأَخَذُوا بعضَ ما في أيدِيهِم، وما لم تَحكُم أئِمَّتُهم بِكتابِ اللهِ، ويَتَخَيَّرُوا فِيما أنزلَ اللهُ؛ إلا جَعلَ اللهُ بأسَهُم بينَهُمْ.

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترغيب ١٧٦١ •صحيح لغيره •أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٦٧١)، والحاكم (٨٦٢٣) باختلاف يسير•

أما الشيطان فهو يسير مع المجتمع بمراحل في الفاحشة؛ يسير معهم خطوة خطوة نحو الفاحشة، يبدأ جزء من المجتمع بعملها ويشعر باستنكار من المجتمع فيبرر ويقول هذه هي التقاليد، ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف ٢٨]، وبعد أن يقول هذه تقاليد يبدأ يقول هذا شرع، ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وبما أنه شرع فيبدأ في نشره، وبما أنه بدأ في نشره فلم يعد يخاف منه، فيعلنه، فتبدأ الفاحشة تُعلَن بعد أن مرت في المجتمع بمراحل، وهذه خطوات الشيطان في الفاحشة.

كذلك هناك خطوات للشيطان في التعامل مع الأكل، تحليل الحرام وتحريم الحلال، المرة التي ورد فيها أيضًا ذكر خطوات الشيطان كانت بعد أمر ﴿ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة ٢٠٨]، إذًا الشيطان هدفه شيئان؛ الشهوات في الفرج وفي البطن، وفي النقطة الثانية أنه يريد أن يجزّئ الدين، ﴿ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾، "**السلم كافة**"؛ أي ادخلوا في الإسلام كافة، خذوا كل تشريعاته.

فالشيطان يدخل بخطوات إلى المجتمع، يريد أن يقسم الدين والإسلام لأجزاء، فيوسوس لنا بأن اهتموا بالعبادات والأخلاق ودعكم من بقية التشريعات، دعكم من الولاء والبراء، دعكم من الجهاد، دعكم من أحكام معينة في الشريعة، دعكم من الحدود، دعكم من هذه الأحكام، فالشيطان حتى يصل إلى هذه المرحلة في المجتمع –والتي نعيشها الآن ومطبقة في جل الدول الإسلامية– لكي يصل لهذه المرحلة مر بخطوات؛ أي أن نزع التشريع من المجتمع والوصول إلى هذه الحالة الهشة التي نراها من تجزئة الدين وأن تجد دستورًا أو قانونًا به مادة شرعية ومادة غير شرعية، ومادة غير شرعية ومادة شرعية، هذا النسق المختلط الذي وصل إليه المجتمع، قد وصل إليه بخطوات، فلا تظن أن المجتمع المسلم انتقل من تشريع متكامل يُستمد من الوحي إلى تشريع مختلط مُستمد من أشياء كفرية، وأشياء من الفلاسفة، وأشياء من العقل، وأشياء الله أعلم بها جاء هكذا فجأة!!! كذلك الفاحشة عندما ترى انتشارها في مجتمع هي لم تنتشر فجأةً، حتى الإنسان عندما يسقط في الفاحشة لا يسقط فجأةً، عندما قال –عز وجل– عن الزنا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء ٢٢]؛ أي طريقًا، فهو طريق يمكن أن يبدأ من الإنسان بخلوة محرمة، أو بنظرة محرمة، فالفاحشة كذلك مع الفرد وهي أيضًا كذلك مع المجتمع.

فالشاهد؛ الله –عز وجل– قال هنا ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إذًا الشيطان عندما يريد أن يدمر مجتمعًا يفعل شيئين، وذلك استخلاصًا من كلمة خطوات الشيطان في القرآن الكريم في الأربعة أو الخمسة مواضع، يقوم بفعل شيئين:

- أولًا: ينشر الشهوات سواء الفرج أو البطن.
- ثانيًا: يقوم بتجزئة الدين عند الناس.

بهذين الفعلين يحاول تدمير وإفساد هذا المجتمع، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّ مُّبِين﴾ [الأنعام ١٤٢].

ثم جاء الرد التفصيلي على مسألة تحريم الحلال فهم قد حرموا أشياءً!

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰم وَحَرۡثٌ حِجۡر لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ [الأنعام ١٣٨]، فقد حرموا الحلال وهذه مناظرة تفصيلية للرد على من يريد تحريم شيء.

أولًا: ابدأ النقاش معه لماذا تحرم أنت ابتداءً؟ هل أنت مَن خلقتها؟ لست أنت من خلقتها، ثم تسأل على أي أساس قمت بهذا التحريم؟

فمثلًا في المعاملات المادية أو الاجتماعية وفي القوانين الوضعية تجده مثلاً إذا أراد أن يحرم الزنا تجده يُجرِّمه في مواضع ولا يُجرِّمه في مواضع أخرى، وفي المعاملات المادية يحرم أشياء ويُحِل أشياء، فتسأله ما الأساس الذي من أجله تحركت وأحللت هذا وحرمت هذا؟ فأنتم حرمتم جزءًا من الأنعام وأحللتم جزءًا من الأنعام، فالله –عز وجل– بدأها معهم من أول الأمر وبدايته. فأولًا أنتم لستم مَن خلقها ولكن الله هو مَن خلقها، وما خلقه الله ثمانية أزواج وهو الغالب في الأطعمة من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين.

انظر إلى التفصيل، عندما تريد الرد على شخص بهذا الوضع، فكما يوجد رد مجمل في القرآن، ورد تخويفي في القرآن، وإعراض عن الجواب في القرآن، كذلك يوجد رد تفصيلي، من أجل محاصرته وأن تشعرهُ بجهله كما قال –عز وجل– ﴿سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡم﴾ [الأنعام ١٤٠]، فهذا الكلام ليس مبنيًا على أي أساس، ويسمى في علم الأصول ((السبر والتقسيم)) فأنا سأقسمها لك وأخبرني أنت على أي أساس حرمت وأحللت أشياء، حتى أصل معه لشئ في علم المناظرة يسمى التحكم، أنت ليس معك أي

أساس، أنت تستخدم هواك، وتُحِل به وتحرم، فأُثبت له جهله في التحريم والتحليل، فليس عندك وحي، ولا مستند شرعي، ولا رسول، ولا كتاب، ولا أساس تتحرك عليه، ولكن أنا عندي وحي لذلك قال -عز وجل-: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ...﴾ [الأنعام ١٤٥]فقد قلت لك سابقًا أن معي وحي أتحرك به، وقلت لك أعطني ما عندك من الكتاب، فليس معك كتاب، ولا رسول، فعلى أي أساس تتحرك؟ لذلك قال -عز وجل-: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام ١٤٩].

فنقولُ له: ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ* وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [الأنعام ١٤٣-١٤٤]، فمرة تحرمون الذكور، ومرة تحرمون الإناث، ومرة تقسمون على حسب الذكور والإناث منكم، ومرة حسب الذكور والإناث من الأنعام. ولو استطردت معهم، ستجدهم مرة يحرمون الذكور ومرة يحرمون الإناث، ومرة يحرمون الاثنين ومرة يحلونهما.

فقل: ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾، فهل أنتم تُحِلُّون على أساس التذكير والتأنيث؟ أم على أساس ما في الأرحام؟ أم على أي أساس؟ كانوا يحرمون على أساس الذكور والإناث وهذه التقسيمة أُثبتت لهم بآثار ذكرها الإمام البغوي وغيره.

فقد أرسلوا مالك بن عوف يناظر النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد أسلم بعد ذلك، فقد ذهب ليناظر النبي -صلى الله عليه وسلم- فقرأ عليه الآيات وقال له على أي أساس تحرمون؟ فتحير مالك، فقد اكتشف فعلًا أنهم أحيانًا يحرمون الذكور عندما يفضلون ذلك وأحيانًا يحرمون الإناث فتحيَّر مالك ولم يُجب!

فإذا قالوا: نعم الذكور، يكتشف أنه يعود ليُحرم الإناث، وإذا قال: نعم الإناث، يكتشف أنه يعود ليحرم الذكور، وإذا قال: نحن نحرم ما في الأرحام، ولكن ما في الأرحام أحيانًا يكون ذكرًا وأحيانًا أنثى!

﴿بِتُونِي بِعِلْمٍ﴾ هل معك علمٌ تتكلم به لتحرم وتُحِل على أساسه؟! لذلك تجد القوانين الوضعية، لا بد دائمًا أن يحدث لها تحديث، لأنه يكتشف أن الأساس الذي كان قائمًا عليه قد تغير؛ فالنظرية مرة اشتراكية، مرة رأسمالية، ومرة اكتشفنا تقسيم جديد للثروة، واكتشفنا أن الفوائد عندما تزيد عن نسبة معينة يتدمر الاقتصاد، لا نريد فوائد، لا نحتاج إلى الربا أو نحتاجه بنسبة أقل من أجل الاقتصاد.. وهكذا يتخبط ويتخبط!

لماذا؟ فقد قال الله لنا ابتداءاً، لماذا تريد أن تسير حتى نهاية الطريق حتى تصدق ربنا -تبارك وتعالى-؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك ١٤]

والشاهد من الآيات، أن هذه طريقة، لا بد أن نستعملها، مناظرة تفصيلية لشخص يريد تحريم شيء أحله الله، فلو كان يريد إحلال شيء حرمه الله، قد تكتفي بإخافته، لأنه يتبع شهوته -فكما ذكرنا- تحريم ما أحل الله أكثر جُرمًا من تحليل ما حرم الله لأنه ينازع في التشريع، هذا خلاف مَن اجتهد على الأدلة الشرعية وأدى اجتهاده إلى هذا فله أجر واحد، لكن شخص يتحكم في الناس ويفرض على الناس اختيارات هو بعقله وصل إليها فيحرم على الناس الرزق الذي أحله الله لهم فهذا أشد جُرما وهذا يحتاج إلى مناقشة تفصيلية تناظره وتقسم له الأمر وتوضحه وتُظهر له أنه ليس على أي أساس.

أما ما معك فهو وحي، لأنه قد يقول: ولماذا أنتم تحرمون كذا؟ فنرد بقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾، هل معك وحي من الله؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام ١٤٤].

فأشد الناس ظلمًا من يفتري على الله الكذب ليضل الناس بغير علم؛ لذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رأيت عمرو بن لُحي يجر قُصْبَه في النار)[٢]، عمرو بن لُحي أول من سيَّب السوائب، أول من جاء بالأصنام من الشام، أول من جعل البحيرة والحام، أول من أفسد وغيَّر دين إسماعيل -عليه

٢ عن أبي هريرة: رَأَيْتُ عَمْرَو بنَ عامِرِ بنِ لُحَيٍّ الخُزاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ في النَّارِ وكانَ أوَّلَ مَن سَيَّبَ السَّوائِبَ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٥٢١ • صحيح • [أخرجه البخاري (٣٥٢١) واللفظ له، ومسلم (٢٨٥٦) •

السلام-، لذلك عذابه شديد، ولماذا يجر قصبه -أي أمعاءه-؟ لأنه كان يستفيد ماديًّا ويأكل من وراء هذا فيجر هذه الأمعاء التي طالما تغذت على هذا الدين الفاسد الذي أحدثه.

إذًا أخطر شخص هو مَن يكون أول مَن يُغيِّر في دين الله -سبحانه وتعالى- فهو أشد الناس ظلمًا، وبعضهم قال وأشد الناس ظلمًا أيضًا مَن تبعوه وهم يعلمون أنه كاذب؛ لذلك أعلى الناس أجرًا مَن يأتي لوضعٍ فاسدٍ ويقوم بتغييره.

لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما جاءه اليهود في قصة المحاكمة في الزنا، فقد حكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالرجم ورفضوا ذلك، فقال الرسول -صلى الله عليه وسلم- في صحيح مسلم: (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه)[٣].

كما أن أول من أفسد وغيَّر الدين عذابه شديد، كذلك أول من أحيا الدين ثوابه عظيم.

لذلك ما فعله أتاتورك بعد سقوط الخلافة العثمانية والتغيير الشنيع الذي فعله لاستجلاب قوانين وضعية وكذلك أول من ساهم في ذلك عذابه شديد، لأنه يفسد ويغير ويدمر، ومن يساعد في إحياء الشريعة مرة أخرى ويبذل نفسه وماله ودمه من أجل ذلك ثوابه عند الله -عز وجل- عظيم.

يقول الله -عز وجل-: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، ثم تقول له أنتم تحرمون على أي أساس؟ أنا ليس لي إلا مصدر واحد فقط للتحريم والتحليل، فقد قلتم على أشياء أنها حرام، ولكنني سأنظر في المصدر الذي معي، وبعد أن نظرت فيه،

---

[٣] عن البراء بن عازب: مُرَّ على النبيِّ ﷺ بيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فَدَعاهُمْ ﷺ، فَقالَ: هَكَذا تَجِدُونَ حَدَّ الزّانِي في كِتابِكُمْ؟ قالوا: نَعَمْ، فَدَعا رَجُلًا مِن عُلَمائِهِمْ، فَقالَ: أَنْشُدُكَ باللَّهِ الذي أَنْزَلَ التَّوْراةَ على مُوسى، أَهَكَذا تَجِدُونَ حَدَّ الزّانِي في كِتابِكُمْ قالَ: لا، وَلَوْلا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بهذا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ في أَشْرافِنا، فَكُنّا إذا أَخَذْنا الشَّرِيفَ تَرَكْناهُ، وإذا أَخَذْنا الضَّعِيفَ أَقَمْنا عليه الحَدَّ، قُلْنا: تَعالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ على شَيءٍ نُقِيمُهُ على الشَّرِيفِ والْوَضِيعِ، فَجَعَلْنا التَّحْمِيمَ، والْجَلْدَ مَكانَ الرَّجْمِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ إنِّي أَوَّلُ مَن أَحْيا أَمْرَكَ إذْ أَماتُوهُ، فأمَرَ به فَرُجِمَ، فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : {يا أَيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ في الكُفْرِ} إلى قَوْلِهِ {إنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ} يقولُ: ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فإنْ أَمَرَكُمْ بالتَّحْمِيمِ والْجَلْدِ فَخُذُوهُ، وإنْ أَفْتاكُمْ بالرَّجْمِ فاحْذَرُوا، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعالى {وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكافِرُونَ} {وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ} {وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ} في الكُفّارِ كُلِّها. وفي رواية: حَدَّثَنا الأعْمَشُ بهذا الإسْنادِ نَحْوَهُ، إلى قَوْلِهِ: فأمَرَ به النبيُّ ﷺ فَرُجِمَ، وَلَمْ يَذْكُرْ ما بَعْدَهُ مِن نُزُولِ الآيَةِ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٧٠٠ • صحيح•

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ...﴾ [الأنعام ١٤٥] وذكر المحرمات في الوحي.

إذًا عندما تسمع تحريمًا أو تحليلًا تقول له انتظر لأنظر ﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، أنظر في الوحي، ولذلك المصدر الوحيد الثابت الذي لا بد أن نتحاكم إليه، لكي نرى من الصادق ومن الكاذب، لكي نعرف هل هذا يقول بالتلفيق أم يقول الحقيقة، نعود إلى الوحي، فأنت تقول له منذ البداية، أنا لدي وحي أعود إليه، لدي مصدر لن أغيره ولن أبدله ولن أتنازل عنه ولن أنصرف إلى غيره، ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾.

هنا يوجد نقطة مهمة جدًّا، لماذا كلمة ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ فصلت بين المحرمات؟ يقول الله -عز وجل-: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾، ذكر ثلاثًا متصلات؛ ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير ثم قال: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ ليفصل بينهم، ثم قال: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾، كأنك عندما أنكرت تحليل الأطعمة أو تحريمها بغير أساس، فأنت أخبرته أولًا أن التحليل والتحريم لدي هو على أساس الوحي، فأنا لا أتصرف من تلقاء نفسي؛ وإنما على أساس الوحي.

ثانيًا: إن الوحي يحرم الأطعمة على سببين، المحرمات لدينا تحرم لسبب من اثنين؛ إما أن هذا شيء مؤذٍ، يؤذي البدن، أو سبب آخر عقدي. الجزء الأول شيء مؤذٍ بدنيًّا، على أساس القول أنه رجس؛ أي أنه شيء خبيث مؤذٍ.

" الجزء الأول" الذي يختص بالميتة أو الدم المسفوح أو لحم الخنزير، ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾، بعضهم قال إن لأنه"الهاء" الموجودة في كلمة "فإنه" تعود على الثلاثة، وبعض المفسرين قالوا إنها تعود على الخنزير تحديدًا، أيًّا كان فهؤلاء الثلاثة لو قلنا إن كلمة **رجس** معناها: نجس أو قذر، والنجاسة والقذارة مؤذية، فالجزء الأول من المحرمات هو الشيء المؤذي النجس، فكذلك يقاس عليه أي طعام آخر إن كان مؤذيًا أو طعامًا نجسًا، القاذورات كذلك لا تؤكل، أما بالنسبة للتقسيمة الثانية من التحريم -انظر كيف يفهمهم الله ويعلمنا أنه حتى التحريم مبني لدينا على أسس- فتحريم الطعام على سببين؛ إما أطعمة نجسة بها أذى أو قاذورات، أو أطعمة أخرى ظاهرها غير مؤذٍ، ولكننا لا نتعامل مع الأشياء بشكل مادي فقط، نحن لا نتعامل مع الطعام والشراب مثل الأنعام؛ لا... فمثلا الذبيحة ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ

ٱللَّهِ بِهِۦٓ﴾، فإذا أحضرنا غنمًا وقمنا بذبحه، ولو كان غنمًا أو شاةً كبيرةً تكفي كل من في المسجد أو جملًا، ولو ذبحناه بالسكين وفذهب ماله من أذى مادي، ولم نأكل خنزيرًا ولا قتلنا الغنم قبل أن نأكله، ولكننا ذهبنا عند صنم لنذبحه -والعياذ بالله-، أو دعنا نقول: "هم" ذهبوا عند صنم ليذبحوه -يستحب عندما تتكلم عن أفعال المشركين مثلما فعل الراوي في البخاري قال: (هو على ملة عبد المطلب)[٤] رغم أن أبا طالب قال: "أنا" على ملة عبد المطلب، ولكن الراوي رفض أن يقول ((أنا)) على ملة عبد المطلب-، المهم أنهم ذهبوا عند الأصنام وذبحوا الشاه بالسكين، وعند الذبح قال: باسم اللات أو باسم هُبل ورفض أن يذكر اسم الله -عز وجل-، هذه لا تؤكل! فإن الأكل عندنا أيضًا عقدي، كما نسمي الله -عز وجل- على الطعام، فالأكل عندنا ليس مجرد ماديات، نحن نترفع عن ذلك.

فاليهود هم الذي يتعاملون تعاملًا ماديًّا مع الأشياء، فتجدهم يسألونك ما هو الفرق؛ ألستم لا تأكلون هذه الأشياء فقط لأنها مؤذية؟! لا... الأمر ليس كذلك؛ نحن لدينا تعامل عقدي مع الطعام، فإن كان في قمة التغذية أو قمة النظافة أو في قمة الجمال، لكن لم يذكر اسم الله عليه أوذُبح على غير اسم الله لا نأكله لأنه ﴿فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦٓ﴾، ولذلك التعامل مع الطعام تعامل المؤذي القاذورات النجسة هذه لا نأكلها ويقاس عليها غير ذلك، ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦٓ﴾، وأيضًا يقاس عليها غير ذلك.

ودائمًا الشريعة متكاملة، فكما قال: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[الأنعام ١٤١] قال: لا تأكل هذه الأشياء ثم عاد وقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [الأنعام ١٤٥].

---

[٤] عن المسيب بن حزن: أَنَّهُ لَمّا حَضَرَتْ أبا طالِبٍ الوَفاةُ جاءَهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أبا جَهْلِ بنَ هِشامٍ، وعَبْدَ اللَّهِ بنَ أبِي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرَةِ، قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ لأبِي طالِبٍ: يا عَمِّ، قُلْ: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، كَلِمَةً أشْهَدُ لكَ بها عِنْدَ اللَّهِ فَقالَ أبو جَهْلٍ، وعَبْدُ اللَّهِ بنُ أبِي أُمَيَّةَ: يا أبا طالِبٍ أتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُها عليه، ويَعُودانِ بتِلْكَ المَقالَةِ حتّى قالَ أبو طالِبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ: هو على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ، وأبَى أنْ يَقُولَ: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أما واللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لكَ ما لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فأنْزَلَ اللَّهُ تَعالى فِيهِ: {ما كانَ للنبيِّ} [التوبة: ١١٣] الآيَةَ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١٣٦٠ • صحيح •

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّا﴾ [مريم ٦٤] ، سبحان الله التشريع متكامل، ودائمًا العقل البشرى ينسى، فعندما يقوم بوضع تشريع أرضيّ تجده ينسى أشياء، فتجد بعض الناس يصيبها الضرر من أشياء في هذا التشريع الأرضي، فيشتكي الناس فيقوم من وضع التشريع بالتعديل، لأن بعض البشر حصل لهم ضرر، ولأن العقل البشري قاصر لم يضع في ذهنه ذلك.

ومن أجمع الصور لهذا العدل المتكامل الذي لم ينسَ أحدًا [سورة النساء]، فعلًا هذه السورة عندما تتأمل فيها تجد أنها سورة مبهرة، فهي لم تنسَ أحدًا ولم تنسَ شيئًا، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّا﴾.

نعود مرة أخرى؛ بعد أن قال هذه الأشياء، قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام ١٤٥]، هذه الأشياء تُباح في وقت الاضطرار فقط، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ تكلم المفسرون فيها؛ قيل: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ أي لا يقوم هو بنفسه بالبحث عنها، ﴿عَادٍ﴾ إن الضرورة تقدر بقدرها؛ أي أننا لا نأتي بالميتة ونصنع منها أكلات شهية ونزينها ونقوم بفتح مطاعم للميتة، وبعد ذلك نقول هذا للضرورة!!!بالطبع لا؛ فالضرورة تقدر بقدرها.

ولذلك ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، التوسع في الضرورات يعتبر حرامًا، فنحن لدينا قاعدة ((**الضرورة تقدر بقدرها**))، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، وبعضهم قال: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾؛ أي لا يستفيد من هذه الرخصة أصحاب المعاصي، ففي السفر لو شخص مسافر ولكن سفر معصية، فليس له الحق في الاستفادة من هذه الرخصة وغير ذلك من الأقوال.

الشاهد أن الله –عز وجل– بعد أن حرَّم هذه الأشياء أحلَّها للمضطر وأن يأكل بقدر الضرورة فقط، مَن الذي سيحاسبه في هذا الوقت؟ الله –عز وجل– يعلم ذلك، مَن الذي سيحاسبه أنه بعد أن أكل من الميتة القدر الذي يستطيع أن يتحرك ويسافر به أكل ثلاث لقمات زائدة مثلًا! مَن الذي سيحاسبه؟ الله –عز وجل–، مَن مطلع عليه؟ الله –عز وجل–.

لذلك ربْطُ الناس دائمًا في التشريع بالدار الآخرة أمر مهم، ليس فقط نربطهم بالعقوبات الدنيوية –وإن كانت مهمة– ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، انظر إلى المحاصرة، في البداية قلتُ إن الله هو الذي أنشأ هذه الأشياء، ثم فَصَّلْتُ لك أنك تُحرِّم دون أي أساس لا شرعي ولا علمي، ولكن التحريم عندنا قائم على الوحي وأن الوحي له حِكَم وعلل...فإذا به يقول: إن اليهود لديهم أشياء غريبة وأنت تقول أن هذا من الكتاب، هم أيضًا أهل كتاب وعندهم أمور محرمة غير متناسقة مثلي، فما العيب أن أكون مثلهم لدي أمور محرمة غير متناسقة؟! تلك الأمور غير المتناسقة ذكرها الله قبل أن يقولها هو.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام ١٤٦].

اختلفوا في كلمة "ظفر"؛ هل هو الحافر الذي ليس به أظافر؟، وما هي هذه الأنعام؟، بعضهم قال الإبل والأرنب وبعض الحيوانات كانت محرمة، وبعضهم قال: لا بد أن تكون مشقوقة الأظافر أو غير مشقوقة؛ أي كانوا على خلاف، الشاهد ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾، الإبل والأرانب وبعضهم قال: والبط وبعضهم قال: بل الإبل والأرانب فقط، وبعض المفسرين مثل: القاسمي وابن عاشور قالوا أنهم بدأوا يأتون بأشياء موجودة عندهم في التوراة.؟؟؟؟؟

وأيًّا كان، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ﴾ لحوم البقر والغنم حلال ولحوم الإبل عليهم حرام، فمن الممكن الذي يسمع من المشركين يقول: إنهم فرقوا بين الإبل، والبقر والغنم؛ وربنا قال إن هؤلاء الثلاثة لا بد أن يكونوا متساوين لأنهم ثمانية أزواج المعز والضأن والبقر والإبل، لا بد أن تكون أحكامهم متساوية والذكر والأنثى لا بد أن تكون الأحكام متساوية، والأمر مُطَّرد في الثمانية أزواج، لماذا الحال هكذا عند اليهود، فنحن مثل اليهود، ولكن الله يخبرنا أنه هو مَنْ حرَّم عليهم هذه الأشياء تحديدًا بسبب ذنوبهم، وأن هذا ليس من عندهم، وعندما قال الله في النهاية: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، هذا رد على اليهود؛ لأن اليهود قالوا إن هذه الأشياء محرمة علينا لأن إسرائيل هو مَن حرمها على نفسه، وأنها لم تُحرَّم علينا عقوبةً؛ لأنهم لو اعترفوا بهذا التحريم فكيف يكونون شعب الله المختار وهم عليهم عقوبات؟!

فقالوا إن إسرائيل –يعقوب عليه السلام– عندما حرَّمها على نفسه طلب الله منهم أن يكملوا ما فعله، وقال الله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، أريدك أن تنتبه؛ هذا الرد المفصل لإفحام الخصم يكون مهمًا أحيانًا.

ذكرنا أن الآيات في القرآن أحيانًا تُعرِض عنهم عندما تعلم أنه ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف ٥٨]، وأحيانًا الرد الوعظي، وأحيانًا الرد التخويفي -كما سيأتي معنا في الآيات الآن عندما يأتي يحتج بآخر حجة في النهاية- لأن هذه مناظرة -كما ذكرنا- أنها من أكثر السور التي جاءت فيها ﴿قُلْ﴾ أكثر من أربعين مرة في سورة الأنعام.

فأنا أولًا قلت له أن ربنا هو الذي خلق، أنت ليس لديك أي أساس علمي، ولا أي أساس شرعي، أنا أتبع الوحي، هذا الوحي له حِكَم وعلل وتقسيمات، والذين عندهم وحي آخر وحيهم باطل فيه تحريف.

وربنا ذكر لنا الفروقات التي حدثت، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ -الشحوم- إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام ١٤٦]، ربنا حرَّم الدهن والشحم في البقر والغنم ما عدا ثلاثة أشياء، ما عدا التي في الظهور، أو الحوايا -قالوا هذه التي في الأمعاء-، أو الملاصق للعظم.

لماذا؟! لماذا لم يحرم الله هذه الثلاث أشياء؟ قيل: لأنه يصعب فصل هذه الشحوم، سبحان الله حتى والله -عز وجل- يعاقبهم يرحمهم؛ فهذه عقوبة، ربنا عاقبهم فحرم عليهم الإبل لأن ربنا قال في النهاية: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾، هذه عقوبة لكن الله -عز وجل- وهو يعاقبهم يرحمهم، لأنه لو حَرَّم عليهم كل الشحوم، لقالوا لا نستطيع فصلها، فرحمهم الله وحتى لا يكون لهم عذر؛ فالله -عز وجل- قال هذه الثلاثة حلال لكم.

ورُغم أن الله حرَّم عليهم الشحوم كانوا يجمعونها ويجمدونها ثم يصهرونها ويبيعونها ويقولون لم نأكلها، (كما في الحديث في البخاري)[٥]، إنهم كانوا -والعياذ بالله- يتحايلون على الدين، إذا كانت الأوامر الواضحة يتحايلون ويتلاعبون فيها في الدين!

---

٥ عن أبي هريرة: أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: قاتَلَ اللَّهُ يَهُودَ حُرِّمَتْ عليهمُ الشُّحُومُ، فَباعُوها وأَكَلُوا أثْمانَها.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٢٢٤ • صحيح •

فالله -عز وجل- وهو يعاقبهم لكنه يرحمهم -سبحانه وتعالى-، كما قال كثير من المفسرين إن المن والسلوى، وتفجر الحجر الذي أخرج لهم الماء، هذا كان في التيه، هذا حدث في وقت العقوبة.

((إذًا الله -عز وجل- لا يبتلي ليعذب ولكن قد يبتلي ليصطفي ويهذب، والله -عز وجل- حتى وهو يعاقب يرحم، حتى العقوبة فيها رحمة وفيها حفظ ورعاية)).

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ عندما يستعمل الله أسلوب التوكيد، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، إذًا هناك شخص ينكر، هناك مَن سينكر هذا الكلام، سيقول اليهود لا هذا الكلام كذب، ربنا لم يُحرِّم علينا هذه الأشياء لأننا بُغاة أو لأننا ظالمون، لا... إننا شعب الله المختار وربنا حرَّم علينا هذه الأشياء اصطفاءً! لأننا نفعل ما فعله يعقوب -عليه السلام- فالله -عز وجل- يُكَذِّبهم فيقول: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ [الأنعام ١٤٧]لو أصرَّ اليهود على التكذيب أو أصرّ المشركون على التكذيب بعد كل هذا الشرح التفصيلي فقل لهم: ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾.

ما علاقتها بما سبق؟

أنكم فعلتم كل هذا والله لا زال يترككم، ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [الأنعام ٥٨]، فعلًا عندما يترك الله أمثال هؤلاء ف ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام ١٤٧]، فعلًا هناك أناس عندما تراهم تقول: كيف يترك الله هؤلاء الناس يسيرون على الأرض؟! هناك أناس يقولون كلامًا -والعياذ بالله- كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ)[٦].

ويقول الله -عز وجل-: (يشتمني ابن آدم ويؤذيني ابن آدم)[٧]، فتخيل فعلًا أنهم بعد كل هذا التفصيل من أول السورة والعنت والنقاشات وكل هذه التفاصيل وما زالوا يُكذبون؛ فتقول: فعلًا الله يتركهم إلى

---

٦ عن أبي موسى الأشعري: ما أحَدٌ أصْبَرَ على أذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعالى، إنَّهُمْ يَجْعَلُونَ له نِدًّا ويَجْعَلُونَ له ولَدًا وهو مع ذلكَ يَرْزُقُهُمْ ويُعافيهم ويُعْطِيهِمْ. / مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٨٠٤ • صحيح • أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) واللفظ له

٧ عن أبي هريرة: قالَ النبيُّ ﷺ: أُراهُ قالَ اللَّهُ تَعالى :يَشْتِمُنِي ابنُ آدَمَ، وما يَنْبَغِي له أنْ يَشْتِمَنِي، ويُكَذِّبُنِي وما يَنْبَغِي له، أمّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ: إنَّ لي ولَدًا، وأَمّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ: ليسَ يُعِيدُنِي كما بَدَأَنِي. / البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣١٩٣ • صحيح•

الآن لأنه ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَ ٰسِعَةٍ﴾، ولكن ليس معنى أنه يترككم أن الموضوع متروك، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ثم يبدأ النقاش في آخر ربع في سورة الأنعام في الختام، آخر حُجة؛ يقول الله لنا لو أنت عملت معه كذا سيقول، لم يقل -سبحانه- "قالوا" بل: ﴿سَيَقُولُ﴾ وبعض المفسرين قال: سورة الأنعام نزلت قبل سورة النحل وهذا القول قالوه في سورة النحل، ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام ١٤٨]، هذه آية سورة الأنعام، وآية سورة النحل هي ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل ٣٥]، الذي قال إن سورة الأنعام نزلت قبل سورة النحل قال: "وبالفعل قالوا هذا القول وأثبته الله -عز وجل- في سورة النحل"،"سيقول" هذا حتى تكون مستعدًا كما قال الله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وبالفعل قالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة ١٤٢]، آخر حجة دائمًا عندما تغلق على خصمك كل المنافذ هي الاحتجاج بالقدر.

دائمًا عندما تناقش شخصًا يجادل في مسألة أن أي دين عند ربنا مقبول والجميع سيدخل الجنة، نصراني، يهودي، حتى الذي يعتقد البوذية ومات سيدخل الجنة، يجادلك أنه فعل أمرًا مهمًا مثل أنه صنع حاسوبًا قبل موته! أو صنع أي شيء مفيد البشرية!، هذا سيدخل الجنة!!!

فعندما تناقش هؤلاء الأشخاص وتأتي لهم بالأدلة يراوغون...معنى كلامك أن الذي يريد أن يكون مسلمًا أو نصرانيًا لا يهم! حسنًا لماذا لا تكون نصرانيًا بما أنك ستدخل الجنة، ويبدأ يجادل ويراوغ... كيف قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كذا، وكذا...وأخيرًا يقول : الله الذي خلقهم هكذا! وأن الاختلاف أمر قدري، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود ١١٨]، ومهما فعلت سيظلون هكذا، الاحتجاج بالقدر آخر شيء يتبناه عندما لا يستطيع الخروج من النقاش، حتى العاصي عندما تنصحه بالتوبة يقول لك عندما يأذن الله، آخر شيء عندما يريد أن ينهي الحوار معك يحتج بالقدر والمشيئة.

في آخر السورة لم يستطع الإجابة ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام ١٤٨]، حسنًا لماذا يقول: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ لأنه يريد أن يثبت معنى أن آباءنا الأقدمين فعلوا هكذا ولم ينزل العذاب، إذًا الله يرضى بذلك!

وهذه أخطر مشكلة "**القياس**" أنه يقول: بما أنه لم ينزل عذاب من السماء إذًا الله راضٍ عنهم وهذا تفكير اليهود.

ففي بعض الروايات في قصة أصحاب السبت، ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف ١٦٣]، هذه القرية قالوا كيف بدأ اعتداؤهم في السبت؟ بعض الروايات -ذكرها الامام الطبري- "أن هناك اثنين جيران كانوا يسكنون بجوار الشاطئ فكانوا يوم السبت يرون الحيتان شرعًا، تكاد أن تخرج على الشاطئ، وباقي الأسبوع لا يوجد حيتان أو سمك، فأحدهما اشتاق لهذا الأكل فذهب يوم السبت جهارًا عيانًا واصطاد حوتًا وشواه، فجاره بدأ يشم الرائحة، فأول ما شم رائحة الشواء عرف أن هذا سمك، فترك البيت وخرج سريعًا وقال سينزل عذاب، فمكث أسبوعًا، أسبوعين، ثلاثة ولم ينزل العذاب، فذهب واصطاد هو الآخر، فعلمت القرية أنهم بدأوا يصطادون".

إذًا أكثر شيء كما قال اليهود: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة ٨]، تفكير اليهود أنه بما أنه لم ينزل عذاب مباشر إذًا إسرائيل هي الصواب! ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام ١٤٨] لأنهم لم ينزل عليهم عذاب!

الرد: أن الله سبحانه وتعالى يقول: لا لقد نزل عذاب، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، يحتجون وهذا أخطر شيء،

((الاحتجاج بالقدر على المعصية))

أن يقول الله الذي أراد ذلك، وهذا خلط عجيب، في حين أنه لو أحد شتمه يغضب، فيجب أن يُقال له لماذا تغضب إذًا؟ الله الذي أراد أن أشتمك! لماذا عندما يؤخذ حقك تغضب؟ أحدهم أخذ أموالك لماذا تغضب إذًا؟! الله الذي أراد أن تؤخذ أموالك، عندما يعتدي أحدهم على حقوقك تغضب، حسنًا؛ لماذا تغضب؟! لأن حاصل هذا الكلام أن الحق والباطل يتساويان! كثير من الفرق ضلت بسبب الاحتجاج بالقدر على الشرع؛ بسبب هذا الخلط.

وللأسف كثير من الفرق ضلت في الإسلام بسبب هذا الخلط؛ لا يستطيعون أن يفهموا ما معنى أن الله -عز وجل- شاء هذا وأراد ذلك؛ لا يستطيع أن يفرق بين المشيئة الكونية "الإرادة الكونية" والإرادة

الشرعية، الله -عزو جل- خلق كل شيء وكل ما يحدث في الكون يحدث بإرادته -سبحانه وتعالى- لا يخرج شيء عن طوعه -سبحانه وتعالى-... كفر الكافر وفسق الفاسق وفجور الفاجر لا يخرج شيء من هذا عن إرادته -سبحانه وتعالى-.

المعتزلة وبعض الذين ينفون أشياء في القدر لم يستطيعوا أن يتخيلوا ذلك، قالوا من غير الممكن أن يريد ربنا ذلك، وقالوا بأن الإنسان هو من يخلق هذه الأفعال، لكن الله -عز وجل- أراد ذلك وأراد أمرًا شرعيًا أيضًا، لذلك يقول: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد ٤]، فالله -عز وجل- أعطى الإنسان القدرة ليختار هذا الطريق أو ذاك، لذلك عندما كان يُسأل السلف عن القدر كانوا يقولون: القدر هو سر الله، القدر هو قدرة الله. من يسأل كيف قدَّر الله كل شيء وكتبه، وفي نفس الوقت يكون الإنسان مخير؟ هذا كمن يسأل كيف يسمع الله الناس كلها في نفس الوقت؟ صفة السمع هذه من صفات الله تعالى، ومن أفعاله -عز وجل-، أو كمن يسأل كيف يرى الله كل شيء في وقت واحد؟ وكيف يمسك السماوات والأرض أن تزولا؟ نحن منهيّون عن السؤال بكيف، نؤمن بالصفة ونفوض في الكيفية، فكذلك القدر.لذلك من ضلَّ لا يستطيع تخيُّل ذلك.

فقالوا: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام ١٤٨]، هذا رد عجيب، مثلًا عندما تدعو شَبابًا فتقول لهم هيا بنا نصلي، فأجمل رد سمعته كان مأخوذًا من هذه الآية؛ فقالوا: اسبقنا ونحن سنلحق بك، فقال لهم: الذين من قبلكم قالوا مثل هذا الكلام وماتوا.

فيقول الله لهم: هل تقولون مثل هذا الكلام، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾، ظلوا يقولون هذا الكلام حتى جاءهم العذاب، هنا التخويف، إذًا هناك رد تفصيلي؛ لأنهم كانوا يُضلون الناس بغير علم، وهذا رد تخويفي لهم؛ فالمدخل هنا من الضعف البشري الذي بداخلهم أن يقولوا مثل ما قال الذين من قبلهم ويستمروا على قولهم حتى ينزل بهم العذاب، فسيروا على طريقهم إذًا! ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء ١١-١٥]، فالذين من قبلكم ما زالوا يقولون ذلك حتى ذاقوا بأسنا، والآية التي قبلها تقول: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام ١٤٧]، أي أنكم ستقولون ذلك حتى ينزل عليكم العذاب، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام ١٤٨].

إذًا لو كان الله -عز وجل- يرضى هذا الفعل من الكفار؛ فلماذا أغرق قوم نوح؟ ولماذا أهلك قوم عاد وثمود؟ ولماذا دمر قرية لوط؟ وهم يعلمون ذلك، ويرون الآثار باقية، ويمرون عليها بالليل، ويمرون وهم مصبحين، يمرون ويرون الآثار بأعينهم، لماذا إذًا دمرهم الله؟ ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾. وهذه أول إشارة وردت في أول السورة.

شيء عجيب أن أول ما ذُكر في سورة الأنعام يتكرر ويعاد؛ أول شيء أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المكذبين وكان ذلك عندما طلبوا آية حسية!، فقيل لهم: انظروا إلى آثار السابقين، وتُختم السورة بنفس المشهد.

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ * قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام ١٤٨-١٤٩]، الله -عز وجل- بعد كل هذا التفصيل ليس لأحد حجة على الله -عز وجل-؛ لله الحجة البالغة.

إذًا مَنْ يعتقد أن القرآن غير كافٍ أو أنه ليس بحجة بالغة واضحة، هذا عنده خلل، الذي يعتقد نقصًا في القرآن هذا كافر، والذي يعتقد ذلك من الدعاة عنده خلل في الفهم، لله الحجة البالغة؛ فمن يريد أن يقيم الحجة على العباد سيجدها في كتاب الله -عز وجل-، ومن لا يكتفي بالقرآن ولا يقتنع بالقرآن فلن يؤمن بشيء بعده، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام ١١٠].

﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾؛ أي التي تَبلُغ الناس، ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام ١٤٩]، لو شاء الله -عز وجل- لهدى الناس كلهم لكن الله -عز وجل- أعطى الإنسان المقدرة على الاختيار ؛ هذا ردَّ على قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام ١٤٨]، بقوله تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام ١٤٩]، لكن الله -عز وجل- لم يشأ ذلك، الله -عز وجل- شاء أن الإنسان هو الذي يختار بنفسه، كيف يعاقب الله -عز وجل- الرحيم الكريم الذي لا يظلم أحد لا يظلم الناس مثقال ذرة؛ كيف يعاقب الإنسان على شيء لم يختاره؟ كيف؟

مَن يقول ذلك يتهم الله -عز وجل-، من يقول أن الإنسان مسيَّر، يتهم الله -عز وجل- يتهمه بالظلم، ويتهمه بالعبث -حاشاه تعالى الله عما يشركون، تعالى الله عما يصفون-.

نختم الدرس بأن البداية التي في أول السورة كانت عن العقيدة، آية (١٩) ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ [الأنعام ١٩]، جَمْعُ الشهادة بالتوحيد مع العقيدة.

وفي نهاية السورة جَمْعُ الشهادة على تشريع واحد من التشريعات، ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ﴾ [الأنعام ١٥٠] نفس الكلمة التي في أول السورة ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ [الأنعام ١٩]، وفي النهاية، ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ [الأنعام ١٥٠].

وكأن السورة بدأت بالعقيدة وختمت بالشريعة وبتشريع واحد، هذا هو التدرج الطبيعي؛ البداية بالعقيدة وتُرسخ عند الناس ثم تُطرح الشريعة، لكن طرح الشريعة قبل العقيدة يتسبب في خلل عند الناس.

أيضًا من الفوائد أن الشريعة لها تعظيم عند ربنا مثل العقيدة، فلو شهدوا على شيء في العقيدة لا تشهد، ولو شهدوا على حكم واحد لا يرضاه الله لا تشهد أيضًا، مجرد تحريم شيء ربنا أحله، لا تشهد معهم، مثلما الأولى شرك، أيضًا الثانية شرك...الأمرين شرك.

هذا الطرح العميق لسورة الأنعام، هذه العقيدة العظيمة التي طُرحت في أول السورة وخُتمت بهذه الشريعة، هذا هو الدين الكامل، وهذا هو الطرح المتكامل لسورة الانعام لذلك نزلت جملة واحدة.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام ١٥٠]، هذه الآية موجودة في المقطع الثاني في السورة ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ وهذه أول آية في السورة، كما تذكرون جاءت "بربهم يعدلون" في أول السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام ١]؛ أي يعدلون مع الله -عز وجل- غيره، أي يساوون بين الله -عز وجل- وغيره، في سورة إبراهيم قالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ لم يقولوا نفضلكم ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء ٩٧-٩٨]، هؤلاء الذين يعدلون مع الله -عز وجل- آلهة أخرى.

إذًا أول مشكلة هي عدم إيمانهم بالآخرة، والمشكلة الثانية هو أنه يبحث عمن ينازع في التشريع، يبحث عن مخرج من التشريع، يبحث عمن يُشرع له؛ فهؤلاء ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام ١٥٠].

فأصبح ختام السورة تعداداً للأمور التشريعية الأساسية التي تقوم عليها أي دولة: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾ [الأنعام ١٥١]، الوصايا العشر –والتي ذُكرت أيضًا في سورة الإسراء وهي من أواخر قرآن العهد المكي– وذكرت هنا كأنها مقدمة لبداية العهد المدني، وأن أي دولة لا بد أن تقوم على هذه الأسس لا يتخلف منها شيء.

الشاهد أن هذا هو الختام لهذه المناظرة من سورة الأنعام والتي بدأت بالعقيدة، وخُتمت بالشريعة، وعظَّمت الأمر حتى أنه لو أمر واحد فقط يُنازَع فيه الله –عز وجل– قيل لمن أطاعهم: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام ١٢١]، لو أطعتموهم في هذا أنتم مشركون، فما بال الذي يُغيِّر في دين الله عز وجل؟!

في النهاية، لا بد أن يكون عند المؤمن عزة بدينه، عنده عزة بالوحي، يؤمن أن الوحي هو المصدر الوحيد للتلقي، ولو راودوه عن دينه في شيء وطُلب منه أن يشهد ويوافق على شيء يخالف العقيدة أو يخالف الشريعة يرفض ولا يشهد معهم.

أسأل الله –عز وجل– أن يثبتنا على الحق حتى نلقاه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

جزاكم الله خيرًا.